

نظرية الحجاج ودراسة الخطاب

عند مارينا تيتيسكو (Mariana TUTESCU)

تركي أمحمد

جامعة ابن خلدون - تيارت -

ملخص:

يحاول هذا المقال تقصي مفهوم الحجاج في الخطاب عند الباحثة واللغوية "مارينا تيتيسكو"، وهي المهتمة بتشكلاته وتمفصلاته وتظاهراته، عبر مجموعة من البحوث اللسانية والتداولية مؤيدة آراء بعض رواد المدرسة الحجاجية الغربية (فيليب بروون وجون سيرل وبول غرايس) مرةً ومختلفة عنهم مرّات عدّة. فبعد أن كان الحجاج في بحوث بعض الرواد دراسةً تقنيات الخطاب والبحث عن سبل الإقناع فيه، غيّرت الباحثة "مارينا تيتيسكو" وجهة هذا التعريف موسّعة حركية هذا المصطلح الذي يعني عندها الوسيلة الأساسية في رؤية العالم و البحث عن تفسير بناء يُقارب الظواهر اللغوية من زاوية منطقية يتوصّل من خلالها الباحث إلى لفت إنتباه الآخر وكسب ثقته في عملية تصديق الأمور والقضايا.

مهاده:

جاء كتاب "الحجاج مدخل لدراسة الخطاب" للباحثة اللغوية واللسانية "مارينا تيتيسكو"¹، في عدّة فصول لا يفترق بعضها إلّا ويلتف ببعضه الآخر في قراءة الخطابات واستخلاص القاسم المشترك بينها الممثل في الحجاج الذي تعلّق أستاذ كل خطاب مهما كان نوعه، ولذلك حظي باهتمام من قبل اتجاهات عديدة كالمنطق والفكر والفلسفة والبلاغة منذ الأزل؛ إذ ظهر وترعرع في كنف اليونانيين من الفلاسفة والخطباء والقضاة والسياسيين، الذين شكّلت الحجة سلطةً على خطاباتهم المبنية على الصراع بين المتكلم والسّامع، وفرصة كل منهما في تبرير موقفه وإقناع خصمه، وهذا ما يعتمد على تخمين العقل وفقاً لما يتصوّره المنطق أولاً و توظيف جماليّات الأسلوب لتحريك العواطف

وإثارة الشعور الكامن ثانياً². وعلى هذين العنصرين الفعّالين و بغيرهما من القضايا قامت فكرة هذا المؤلف.

سلطنا الضوء في مقاربتنا لهذا الكتاب على القضايا المتعلقة بالخطاب لإظهار مواطن الجدّة فيه تفادياً منا للتكرار الذي سبقها فيه رواد هذه النظريّة، وإن جاءت مقدماته طويلة إلا أنّنا أشرنا إلى فكرتها العامّة في فقرتنا السّابقة؛ ومن بين القضايا الكبرى المتعلّقة بعنوان الكتاب نجد:

- إستراتيجيّات الحجاج
- بنية الخطاب بالحجاجي: المكون توضيحي والمكوّن المغربي.
- القوة والتوجّه (L'acteargumentatives) في الحجاج.
- الطبقة الحجاجيّة، التّدرج على نطاق حجاجي، مبادئ الخطابيّة.
- المكونات الثلاثة للجهاز الحجاجي تسمى الموضوعيّة والمنطق والموسوعيّة.
- تصنيف الحجج.

- مفهوم الحجاج عند ماريانا تيتيسكو:

الحجاج عند الباحثة وسيلة لرؤيّة العالم والتّعبير عن قضايا لغويّة في إطار منطق بناء يفسّر الظواهر والأشياء بمنظور عقليّ، إذ يستند على فعل الكلام السّاعي في مراميه إلى الإقناع وإدعان الخصم على الاعتقاد³، إذ ينتج بعد هذا التبادل المشترك استنتاجاً يؤيّد صحّة الدّعوى (هنا قضية ثابتة يراد الدّفاع عن قبولها) أو رفضها (يراد تفنيد دحضها وإبطالها) من قبل شركاء العقد الكلامي، فتحدث منفعة خطاب عن آخر، كما لا يرتبط موضوع الحجاج بالقضايا و الأطروحات ذات البعد الكلاميّ فحسب (محلّ خلاف)، فقد تتجاوزها إلى تغيير السّلوّكات، والتّصرفات الدّاخليّة للفرد⁴.

وبعد هذه النظرة التّحليليّة لمفهوم المصطلح لجأت الباحثة إلى تحديد طرفي العمليّة الحجاجيّة مقدّمة تسميّة للمشاركين في العمليّة بدءاً بالمحاجّ (ARGUMENTEUR) ووصولاً إلى المحجوج (ARGUMENTAIRE) علماً أنّ كلّ خطاب لا يخلو منهما إضافة إلى الموضوع المحاجّ حوله، أو

الرّسالة الحِجَاجِيَّة (le sujet argumentant) القائمة على مكونات أساسيّة لا بدّ من وجودها في كلّ خطاب ذي الصّبغة الحِجَاجِيَّة (مقدّمة، حجّة، خاتمة/استنتاج) فتأخذ هذه الحركة الممثّلة⁵.

ارتكزت الباحثة في دراستها لحجاجة الخطاب على مقولات القيم وأثرها في بناء الفكر وتدعيم المواقف والآراء للوصول إلى استنتاجات عامّة، وقيمة نجاعة أيّ قول تتأسّس وفق ما ينتجه من أفعال إنسانيّة تلقى قبولاً حسناً لدى السّامع، لنتقل بهذا الحديث من العمل على تغيير سلوك إلى العمل على بناء قيم في خطاباتنا، وبذلك قامت الخطابة في عهدها الأثيني على القيم بأنواعها الثلاثة الحقّ، والخير والجمال⁶، وأصبح ينظر إلى الخطاب من جانب البحث في علاقة هذه القيم ومع ما توحى إليه من تأثير في الأشخاص فتأثيرها أعظم من فرض قانون أو عقوبات أُنْجَاح خطأ ما، وبمعنى آخر الاستنتاج العام للأطروحة هو الكفيل على إثبات نجاح نصّ أو خطاب عن آخر*، وعليه لا تتأتّى قيمة الإنسان بشكل عام إلا إذا أحسن التّفكير وعليه يكون ويسيطر.

هذا إلى جانب قضية أخرى لا تقلّ أهميّة عن القضية المطروحة وهي السّياق الاجتماعيّ الذي يُحدّد مقصديّات القول بين المتحاورين إذ هو ما يوضّح الحجج المدعّمة لإثبات قضية ما. ولما كان للسّياق هيمنة على الخطاب جعلته الباحثة لبننة من لبنات البناء للحدث الكلاميّ⁷، فالكلام لا يُقدّم فائدة لقارئه ما لم يكن مبنياً على سياق يتماشى فهم هذا القارئ الحاضر فمنه يبدأ عمليّة التّفكير والتّأويل، وعليه يقع التّفاهم بين المتكلّمين في رؤيتهم للأشياء في إطار جماعيّ أو وسط كلاميّ واحد كان قد صنعه هذا السّياق، لنتقل بالدراسة من مسألة إقناع المخاطب إلى معرفة دواخله ونفسيّته، وهو ما يستدعي حضور المقام التّخاطبيّ بين باث ومتلقٍ (هيأة الباث لحظة تلفظه، صورة المتلقّي.....)⁸.

يتّضح لنا من خلال تتبّعنا لكلام "تيتيسكو" أنّها تعالج مسألة الحِجَاج في التّواصل، مثل "فيليب بروتون"، فهي تحاول قراءة الخطاب من منظور تحاوريّ لا يمكن فيه إلغاء واحد من ركائز العمليّة

التواصلية، ولذلك حدّدت بعض الاستراتيجيات ذات الميزة المنطقية التي يجب توفرها في هذا الخطاب الحجاجي وهي كالآتي⁹:

- التعاون (Coopération): تستند الباحثة في معالجتها لقضية التعاون التّواصليّ على أقوال اللّغويين والفلاسفة أمثال: بول غرايس (H b.Grice) *، وإيمانويل كانط (Kant) التي تشاطرها الرأي حول قضية التعاون بين المتشاركين في الخطاب الواحد" إذ هو مبدأ تأسيس أيّ مشادة كلامية¹⁰، كما أنّه مبدأ تفاعلي يقوم على الحوار الذي يجعل الخطاب مفتوحاً وثرياً من خلال المزاوجات التّلفظية التي يفرضها الموقف التّحاطبيّ، ولا يمكن أن نتصوّر نشوء خطابٍ من غير هذا المبدأ الذي تصنعه أشياء أربعة لا بدّ من حضورها فيه وهي: "الكمّ، والكيف، والمناسبة والطريقة"¹¹، هذا ما جاء به المشتغلون على حقلي التداولية والتّواصل لضمان التّواصل للمتشاركين في الخطاب.

● السّؤال / الإستفهام (L'INTERROGATION):

يلجأ المخاطب في خطابه إلى طرح بعض الأسئلة المتعلقة بماهية الأطروحة، وهذه الأسئلة تتطلّب أجوبة من لدن السّامع بنعم أو لا، وهي تقنيّات يستعملها هذا المخاطب الحذق في جسّ نبض الفهم والتّركيز ولذلك أوجدت الباحثة بعض الخصائص المندسّة في طيّات الخطاب منها¹²:

- ✓ التأكيد المسبق لماهية البيان باعتباره موضوعاً للمحاورّة (التّحدّث في قضية ما دون سواها).
- ✓ تعبير المتحدّث عن قضية محلّ شكّ تستدعي تبادل الأفكار والمواقف.
- ✓ تبرير المحاور لفكرته بعقل وتفسيرات تكون إجابات للقضية المطروحة.

ينتج عن هذه الأسئلة المقدّمة استجابات فعلية تُغيّر السلوكات أو تعدّل بعض الفرضيّات التي كانت محلّ شكّ، فبعد أن ألقى المحاور كلّ حججه يتدرّج من وظيفة إلى أخرى في خطابه إذ يركّز

على الجانب الوظيفي أو ما بات يُعرف بالوظيفة التَّبْهِيَّة (lafonctionphatique) للُّغة حسب ما قدَّمه مَخْطَط جاكبسون¹³.

✓ النَّفي الجدليّ: وهو تابع للسُّؤال إذ كلاهما من أساسيات الفكر والمنطق وعليهما يقوم وبهما يكون تأكيد الحجج. فمثلا نأخذ قولنا:

خالد ليس ذكيا مثل محمّد، إنّما محمّد أذكى منه بكثير

إذا تأملنا هذا الكلام نجد له مفهومين كلاهما قائم على النَّفي: فإخبارنا عن خالد بأنّه ليس ذكياً نكون قد نفينا صفة الذكاء عنه، وهذا ما يسمّى بالنَّفي السَّلبي بمعنى أنّنا نؤكد على هذا المستوى السَّلبي للسماع لا غير، في حين قولنا: محمّد أذكى منه بكثير فنحن نفنّد ونؤكّد قولاً إيجابياً كان قد نُسي أو تَغافل عنه فلم يدرج في الخطاب، فالمتكلّم كان يعني خالداً لكنّه يريد التأسيس لمحتوى إيجابي عكسي يقنع به المستقبل¹⁴.

✓ التَّفْنيذ/النَّقْض (LA RÉFUTATION)¹⁵:

بعد الاستماع إلى حجج المتحدث يُترجم السّامع ما سمعه فعلاً وذلك بنقض حجة مزعومة لإثبات رأي ما، بمعنى آخر يدخل التَّفْنيذ في دائرة الانتقاد؛ إذ هو نقد السّامع لقائله حول أطروحة اختلفت وجهات النظر حولها فليس كلُّ ما يقال ينقّد، ويُفنّد، فقد تكون نتيجته الكبرى الرّفْض خصوصاً إذا تعارض مع مقاربات العقل، وبهذه الاستراتيجية المقترحة بين المتخاصمين يُضعّف القائل حججه للسّامع الذي لا يرفض الحجج اعتباطاً؛ وإنّما عليه التّبرير وتقديم حجج تُدحض الأولى¹⁶، لبناء موقف والخروج بنتيجة يؤسّسها أنصار الموقف المعارض، ومهما يكن فالتَّفْنيذ ليس وسيلة للهدم بل وسيلة للبناء الذي يخدم القضية ومتى تعدّدت وجهات النّظر فيها، تعدّدت الأفكار وتنوعت

الآراء فتكون النتيجة لا محالة صائبةً سديدةً، والعكس صحيح¹⁷، وبانعدامه نصبح أمام مجموعة من الأحداث التي تخدم موقفاً معيناً، ولن يتجلى فيها غير رأى القائل.

✓ الاستعارة (La métaphore)¹⁸:

إلى جانب الاستراتيجيات الحجاجية التي يقوم عليها الخطاب الاستعارة، وهي فعل لغوي غير مباشر يكشف عن البعد الإيحائي في اللغة¹⁹ حيث تقوم على المقارنة بين عنصرين تشابهاً واشتركا في صفة واحدة، ليكون التعبير عنها مجازاً بطريقة جميلة تلفت الانتباه وتتجاوز كل الأطر التعبيرية التي يُبنى عليها القول من قبل، فلا يُكتفى بالفهم السطحي لإشارتها؛ بل بالبحث في الأعماق عن معناها وصولاً إلى الدلالة المعنوية أو المراوغة، فكل الخطابات تقوم على هذا النوع من المجاز لا لجماليته في تقديم الحجة بشكل تعبيرى جميل، -هذا ما عُرِفَ بالجانب الجمالي أو الشعري-؛ وإنما لقدرته الفعلية على الإقناع الذي يكون بعد التفاعل اللفظي في الخطاب التواصلي.

هذه النظرة التي أثارها جون سيرل (John R. Searle) * أولاً وثبّه عليها في تتبعه لدراسة البعد التداولي للاستعارة مركزاً على المعنى الحرفي المتعلق بالمعنى النحوي، والمعنى التداولي البين في السياق، والمثبت لقصدية المتكلم في الخطاب، محاولاً الإجابة عن إشكالية حصرها في السؤال التالي: كيف تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر؟²⁰، ففي هذا الكلام يقف "سيرل" أمام مشكلين عويصين لا يزالان محلّ دراسة أولهما يتعلّق بقصدية المرسل والثاني بمعنى الجملة، إلا أنه يرى أن دراسة الاستعارة في بعدها التداولي /التواصلي متشعبة أساساً بالمتكلم صانع الخطاب ومنتجه؛ فهو من يبتكر الملفوظات الاستعارية وفقاً لسياق معين، وما لجوء المتكلم إلى توظيف هذا اللون من المجاز إلا إشارة على خاصية أساسية تعلّقت والمعنى الحرفي، هنا تكتسب الاستعارة جمالاً في استخراج المعنى المضمّر للملفوظ²¹ والذي تعلّق بملفوظ آخر قصده المتكلم قصداً فيأخذ الكلام شكله التالي:

كلام كلام استعاري دلالة

بعد هذا الكلام تتناسل قضية أخرى كانت قد ولدتها القضية الأم وهي مسألة تأويل هذه الاستعارات القائم على الحاجة بين مؤول النص والنص نفسه، فمرات يكون الملفوظ الاستعاري "غير محدد فيتنسج مجال المعاني التي يحتملها المنطوق الاستعاري، فلا يتحدد المضمير كلمة واحدة؛ بل يتشعب بين عدة مجالات مجازية يحتملها البعد المجازي الاستعاري"²².

إن نظرة كل من الباحثين (تيتيسكو وسيرل) في بحثهما عن الاستعارة في بعديها التأويلي المترتب عن التخريجات المندسة وراء هذا الموجّه القرائي، والتفاعلي المتاح بين المتكلم والسامع، منصبّة حول الشّعور أكثر من باقي الأجناس الأدبية باعتباره تخيلاً و لمحّة دلالة وإشارة خاطفة، تُتعب طالبيها في تفسير مفهومه و تجسيده على مراها الواقع، معتمدا في ذلك على تجربته الجمالية وحسّه الذوقي الرفيع إلى جانب موسوعيته، هنا تتجاوز الاستعارة كلّ الأطر الجمالية فتصبح وسيلة لبناء الفكر، وتبرير الحجج. هذا ما لجأ إليه جمع من الدارسين الغرب في تأويلهم للاستعارات وإخراج المعنى من السياق التلغظي.

✓ المفارقة (Irony):

تلعب المفارقة دوراً بالغاً في الخطاب الحجاجي، إذ هي كما تعرّفها الباحثة (M.Tutescu) "وسيلة حجاجية تصويرية للكشف عن جوهر الحقيقة في اللغة الطبيعية"²³، وكيف يمكن للسامع التعرف على المعنى من خلال مجاورته لهذا التناقض والتفاعل المتواجدين في السياق التواصلي، وهو نفس التعريف الذي تبناه "فونتانييه" (Pierre. FONTANIER) * في تصوّره لتعريف عامّ للمفارقة وقد عدّها من بين الحيل اللغوية التي يتمّ من خلالها جلب الأفكار والكلمات، إذ من قبيل الضدّ تفهم المعاني التي لا يتوصّل لها أيّ مستقبل، وبهذا الوصف الدقيق يترأى لنا أنّ الباحثين يطرحان مسألة أخرى هي مسألة المتلقّي النوعي للخطاب، إذ يُخصّص هذا النوع للنخبة فقط²⁴. هذا ما جعل الباحثة

(M. Tutescu) تنفي مسألة فهم الحجّة للعامّ والاقتصار على فهم خاص الخاص ممن يتحكّمون في عمليّة توليد الدلالة لا بالنظر في رقعة الخطاب؛ وإنما في ضوء ما يدركه العقل ويرجّحه.

تقوم المفارقة أساساً على عنصر الحوار لبناء تواصل متبادل، يعتمد على الموضوعيّة واحترام الآراء هذا هو طابعها العامّ، وقد تتحوّل إلى سجلّ بغية تنفيذ رأي على آخر دون الاعتماد على الشّعور والاحساس، فالكلام هنا قائم على لغة العقل وعمل الفكر.

هنا تجدر بنا الإشارة إلى التّفريق بين المفارقة الأدبيّة الموجودة في الشّعور وباقي الأجناس وهي التي تُنشئ ما بات يعرف بالهوّ أو مسافة التّوتر على حدّ قول "كمال أبو ديب" وهي منبع الشّعريّة²⁵، والمفارقة المنطقيّة الموجودة في الفلسفة؛ وفيها يطرح المحاور فكرةً ظاهرةً ممثّلة في القضية (أ) يراها صحيحة في حين يراها الخصم خاطئة، تتعارض كليّاً مع الفكرة. فلو درسنا الشّعور بمنظار العقل لأقصينا نصف ما يحمله من إبداع وفنّ وجمال وشعريّة.

تدخل المفارقة وما يتبعها من احتمالات في شتى الخطابات وعليها تُبنى صُنفُ القول والكلام، فدائماً يقدّم القائل رأياً أو وجهة نظرٍ معيّنة ليكون قد توالد معه رأياً منافياً له، وعلى هذه الازدواجيّة بين الاختلاف والتخالف المدعوم بالحجج ينمو الجانب الحجاجي في الخطاب و يظلُّ أفقاً رحباً لا يشمل المتحاورين فقط؛ وإنما يتجاوزهما إلى الجمهور الذي يتولّى عمليّة التفسير وقد يصل إلى رأي ثالث له قوة حجاجيّة عالية توافق دلالة هذا الملفوظ المشار إليه²⁶، هكذا تحرّك المفارقة عناصر الخطاب كاشفة عن فعاليّة صانعيه في عمليّتي الدّحض والتّسليم، وبمعنى آخر تترتّب عن المفارقة نتيجة خدمتها في خطاب معيّن دون الدخول في باب التّضليل والزّيف والمغالطات التي قد يلجأ إليها بعض المتكلّمين في تغطية حدث شائع، دون الوصول إلى نتيجة معيّنة.

خاتمة:

استطاعت الباحثة "مارينا تيتسو" في مؤلفها "الحِجاج مدخل لدراسة الخطاب " أن تعالج هذا المصطلح معالجة لسانية تقنية؛ حيث بينت ماهيته و مفهومه وركيزته في بناء الخطابات التي تتفاضل في طرق إيراد الحجج، مركزة في ذلك على حضور طرفي العقد التواصلية (الباث والمتلقي) - أثناء العملية التَّحاورية/التَّخاطبية- في بناء الخطاب عن طريق شبكة من العلاقات الحجاجية والإستراتيجيات اللغوية التي تضمن سيرورته (السِّياق و التَّعاون والاستفهام والتَّفنيد والنقض والإستعارة والمفارقة)، وهي مبادئ يعوّل عليها في دراسة أي خطاب مهما كان نوعه، إذ يترتب على قارئه أن يكون قادرا على تفسير المسكوت عنه في هذا الخطاب بالجامع بين الجمالي الإمتاعي والتَّفعلي التَّداولي الإقناعي، وهذه صفة قارة في كل الخطابات.

الهوامش:

¹ - باحثة رومانية بجامعة بوخارست تشتغل على حقول اللغويات والسيميائيات وتحليل الخطاب .

² - للاطلاع أكثر في حيثيات هذه الفكرة ينظر:

Mariana Tutescu. L'argumentation , introduction à l'étude du discours. Universitatea din Bucuresti .2003, p:08.

³ - VOIR: Mariana Tutescu. L'argumentation , introduction à l'étude du discours. P: 322.

⁴ - " Une argumentation est un « type de discours qui vise à modifier les dispositions intérieures de ceux à qui il s'adresse (les argumentés) ". Mariana Tutescu. P: 322.

⁵ - Ibid. p.:322

⁶ - ينظر: علما لجمال في الفلسفة المعاصرة. مجاهد، مجاهد عبد المنعم. عالم الكتب، بيروت، ط3؛ 1986م، ص: 74.

* - أشارت الباحثة الجرية مارينا تيتسكو إلى وجود الحِجاج في النَّص والخطاب؛ إذ هما على الصعيد التَّواصلية واحد بغض النَّظر عن بعض مميزاتها. ينظر:

Mariana Tutescu. L'argumentation , introduction à l'étude du discours. P323:.

⁷ - Ibid. P312:.

⁸ - Ibid. P323:.

⁹ - Ibid. P318:.

* - فيلسوف ولغوي بريطاني توفي سنة 1988م، من كتبه: "دراسات في الكلمات" (Studies in the Way of Words) في عام 1989.

** - فيلسوف ألماني عاش في القرن الثَّامن عشر (1724-1804)، ولع بالبحث في نظريات المعرفة الكلاسيكية، من كتبه: نقد العقل الخالص ، نقد العقل العلمي

¹⁰ - Mariana Tutescu. L'argumentation , introduction à l'étude du discours. P323:.

¹¹ - Le principe de la coopération est structuré en quatre règles ou maximes, nommées, en écho à KANT, la quantité, la qualité, la relation ou la pertinence et la manière. Ibid. P: 208.

¹² - Ibid.P: 86.

¹³ -roman jakobson.essais de linguistique général.ed-minvit-paris ؛1963.p:220.

¹⁴ -voir: Mariana Tutescu.L'argumentation , introduction à l'étude du discours.P: 239.

¹⁵ -Ibid.P: 255-256.

¹⁶ -Ibid.P258:.

¹⁷ -Mariana Tutescu.L'argumentation , introduction à l'étude du discours.P259:.

¹⁸ - Ibid.P:269.

¹⁹-Ibid. P: 270.

^{*}- فيلسوف أمريكي معاصر من مواليد 1959م، من مؤلفاته: أفعال اللغة وكتاب العقل واللغة والمجتمع وكتاب القصدية بحث في فلسفة العقل.

²⁰ -Ibid.P:270.

²¹ -Mariana Tutescu.L'argumentation , introduction à l'étude du discours.P:271.

²² - "الرؤية التداولية للاستعارة ". عيد بليغ. مجلة علامات، السعودية، العدد(29)؛ 1994م، ص: 99، 100.

²³ - Mariana Tutescu.L'argumentation , introduction à l'étude du discours. P272:.

^{*}- لغويّ وناقد فرنسي من كتبه نذكر: (Les figures du discours).

²⁴ - Ibid.P: 270.

²⁵-ينظر: في الشعرية. كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1؛ 1987م، ص: 136.

²⁶-Mariana Tutescu.L'argumentation , introduction à l'étude du discours.P275:.